بسم الله الرحمن الرحيم

تجارة الخليج
بين المد والجزر
في القرنين الثاني والثالث الهجريين

بقلم : د. عطية القوصي

تقديم

نشطت التجارة والملاحة في الخليج العربي منذ القدم ، وكان لعرب الخليج نشاطهم التجاري والملاحي قبل الفتح الاسلامي للشرق الادنى بقرون عديدة . وكان الاسكندر الاكبر قد شغل، في السنة الاخيرة من حياته، باستئجار الفينيقيين للملاحة في الخليج واستيطان شواطئه ، لكن خلفاءه لم يواصلوا استعداداته في هذا الخصوص . كذلك لم يكن لليونانيين في الامبراطورية السلوقية نشاط بالغ في الخليج .

ولقد كان الخليج والبحر الاحمر منذ القدم طريقي التجارة العالمية البحرية بين الشرق والغرب ، وتناوب كل منهما السيادة في هذه التجارة . وكانت السيادة في التاريخ القديم للبحر الاحمر دون الخليج بسبب اهتمام فراعنة مصر القديمة بهذا البحر واهتمام خلفائهم البطالمة به . وقد ورث الرومان عن البطالمة سياسة الاهتمام بتجارة الشرق عبر الاحمر الاحمر تطلعا منهم في الوصول الى الهند ، فازدهرت التجارة عبر هذا البحر في عهدهم ، وأسسوا في هذا البحر قواعد لهم في عدن وجزيرة سوقطرى لاحكام سيادتهم عليه . وفي ذات الوقت اهتم الرومان بالتجارة عبر الخليج وعملوا على ازدهار موانئه وبخاصة ميناء الابله الذي كانت تصل اليه متاجر الهند .

وفي القرن الثالث الميلادي ، تحولت السيادة البحرية الكاملة على تجارة الشرق الى الخليج ، وذلك بسبب ذبول التجارة اليونانية واضمحلال اقتصاد الامبراطورية الرومانية وعمل الفرس على ازدهار تجارة الخليج في عهد الاسرة الساسانية . وكان من الطبيعي أن يهتم الفرس بالتجارة عبر الخليج بعد أن صاروا ، في عهد بني ساسان ، وسطاء التجارة بين الهند والصين والغرب .

ولقد صار ميناء الابلـه اكثر موانىء العـالم ازدهارا أيام حكمهم . وشهد المؤرخون والجغرافيون المسلمون بازدهار هذا الميناء قبل الاسلام وبتردد اعداد هائلة من سفن الصين والهند عليه حاملة اكثر البضائع قيمة واغلاها ثمنا .

ولقد قاومت بيزنطة احتكار الفرس لتجارة الهند عبر الخليج ، واعتمدت على حليفتها الحبشة في تحطيم هذا الاحتكار دون جدوى . وظلت الحـرب سجالا بين بيزنطة والحبشة من جهة والفرس من جهة أخرى للسيطرة عـلى تجارة الهند ، واستمرت هذه الحرب حتى اشراق شمس الاسلام . ولما انضوى الخليج والبحر الاحمر تحت راية الاسلام صارا توأمين يعملان في خدمة تجارة المسلمين وخدمة اقتصادهم .

ولقد ازدهرت التجارة الاسلامية عبر هذين الموردين المائيين الهامين في عهد خلافة الراشدين والامويين ، واستقبلت موانيهما بضائع الهند وحاصلات تجارة الشرق الرفيعة المستوى . كذلك سارت سفن المسلمين آنذاك ومخرت عباب المحيط الهندي ، وورث المسلمون عن الفرس التجارة في هذا المحيط الذي صارت شطآنه تحت سيطرتهم بعد ان فتحوا الســند مع مطلع القرن الثاني الهجري (الثامن الميلادي) .

ويرجع الفضل في قيام تجارة بحرية واسعة بين مواني الخليج والهنـد والصين مع بداية هذا القرن (الثاني الهجري) الى قيام امبراطوريتين عظيمتين معا على طرفي الطريق : امبراطورية الاسلام ، التي امتدت في العصر العباسي الاول ، من الاندلس غربا الى السند شرقا ، وامبراطورية الصـين على عهد اسرة تانج ، تلك الامبراطورية التي نعم جنوب الصين ، الى حد كبير ، في عهدها نحو قرنين ونصف قرن بالامان والسلام .

وكان لاتخاذ العباسيين العراق مركزا لخلافتهم وبغداد عاصمة لهم ، الاثر الكبير في ازدهار تجارة الخليج في عصر حكمهم الاول وفي تدفق سلع تجارة الشرق الغنية على بغداد ، التي صارت بعد وقت قليل من انشائها ، عاصمة الدنيا وقلب العالم والمدينة التجارية الاولى في عالم العصور الوسطى .

ولقد أشادت المصادر العربية الجغرافية والتاريخية جميعها وكتب الرحلات بهذا الازدهار الملاحي والرواج التجاري في الخليج من خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين . وتحدثت عن أنواع السلع المختلفة التي كانت تفرغ في مـواني الخليج والتي كانت مصدر رخاء التجار وعظم ثروتهم ومصدر انتعاش اقتصاد العالم الاسلامي آنذاك .

كذلك اشارت هذه المصادر الى الصعاب الطبيعية والبشرية التي كانت تعيق الملاحة والتجارة عبر الخليج . فأشارت الى أنواء البحر وتقلب مزاجه المستمر بين هدوء وسكون واضطراب وهياج وانعكاسات هذا التقلب على التجارة والتجار . كذلك تحدثت عن التجرم في البحر (القرصنة) الذي كان قد شاع في تلك العصور . وقد كان هذا التجرم سلاحا في يد الحكام يستخدمونه ضد أعدائهم ، فكان بعض الحكام يشجعون المتجرمة ويعطونهمرواتب وامتيازات خاصة اذا ما عملوا لحسابهم . فكان هؤلاء المتجرمة يهددون حرية المسافر ويبيعونه الى أسواق الرقيق فيفقد حريته الى جانب فقده بضاعته والبضاعة المؤتمن عليها وكل متعلقاته ، فضلا عن تعرضه للضرب والتعذيب والقتل في معظم الاحايين . ولقد ورد لنا ، عبر المصادر ، حكايات كثيرة عن هده الكوارث المفجعة وعن الخسائر الفادحة التي كانت تحل بالسفن والمسافرين عبر البحار في تلك العصور وبخاصة عبر المحيط الهندي .

ولعلنا لا نتعجب من استمرار اقدام التجار والملاحين على الرحلة الى بلاد الهند والصين بادئين رحلتهم من موانىء الخليج أو البحر الاحمر ، رغم ما كانوا يتعرضون له من اخطار طبيعية وبشرية ، اذا ما عرفنا مدى الثراء الذي حققه هؤلاء التجار والملاحين من وراء تجارة أعالي البحار ومدى السلطان الذي احرزوه في مجتمعاتهم من جراء هذا الاتجار .

ولقد تدهورت احوال الملاحة والتجارة في الخليج مع مطلع القرن الرابع الهجري ، بسبب ضعف الخلافة العباسية في عهدها الثاني ، وبسبب قيام الثورات بها وانتشار الفتن وانفصال أجزاء كبيرة عنها واستقلالها استقلالا ذاتيا، وتحكم القواد الاجانب في مصائر خلفائها . فضلا عن منافسة الخلافة الفاطمية، التي اتخذت مصر قلبا لدولتها والقاهرة عاصمة لها ، في شتى المجالات وبخاصة المجال الاقتصادي .

ولقد استفاد الفاطميون من تحول طريق التجارة العالمية الى البحر الاحمر، مع بدء قيام دولتهم وعملوا على تشجيع تجار الكارمية الذين صار نشاط تجارة الشرق في أيديهم . وكان هؤلاء التجار قد اتخذوا البحر الاحمر مركز نشاطهم وميناء عدن قاعدة لهم ، وتحولت الثروات والارباح التي كان يجنيها تجار الخليج اليهم . وبذلك خبى ازدهار مواني الخليج ابتداء من القرن الرابع الهجري ، ودخلت موانىء الخليج وبلاد العراق كلها في مرحلة تاريخية اخرى مختلفة تماما عما كانت عليه في القرنين الزاهرين الثاني والثالث الهجريين . ولقد اقتصرنا في بحثنا هذا على الجانب المشرق في تاريخ حياة تجارة الخليج تاركين ما تعرضت له هذه التجارة بعد ذلك الى بحث آخر باذن الله . . . والله ولي التوفيق .

د. عطية القوصي

حرص بنو العباس ، منذ ان اقاموا خلافتهم ، على ان يجعلوا بلاد العراق مركز الثقل الاقتصادي لهذه الخلافة كما جعلوها مركز الثقل السياسي (١) . ولتحقيق ذلك كان عليهم تأمين الحياة الاقتصادية بها والزود عنها ضد اي اخطار تعترضها . وجاء الاهتمام بحماية تجارة الدولة في المكانة الاولى في خطة الحماية الاقتصادية هذه ، ذلك لان التجارة كانت تمثل عصب اقتصاد الدولة الاسلامية انذاك بما كانت توفره هذه التجارة للدولة من أموال طائلة تشكل جزءا كبيرا من دخلها العام . وقد ارتبطت حماية تجارة الدولة العباسية بأمن الخليج العربي وامن الثغور المطلة عليه لان الخليج كان وقتئذ هو طريق التجارة العالمية .

ولقد نجحت الخلافة العباسية ، في عصرها الاول ، في دعم سياستها الاقتصادية ، وانعكس ذلك النجاح في انتعاش التجارة في الخليج العربي (الذي كان يعرف باسم بحر البصرة) وازدهار مواني هذا الخليج : البصرة ، والابله ، وصحار ، وسيراف ، التي تدفقت السلع والمتاجر عليها . وبذلك حلت محل مينائي عدن والقلزم (موانىء البحر الاحمر) في استقبال سفن الشرق الاقصى ، وحصلت الدولة العباسية على ارباح طائلة من عائد سلع الشرق الغنية التي كانت تتداولها التجارة العالمية في ذلك الحين . وانعكست آثار هذه الثروة الطائلة في الحياة الفخمة التي عاشتها الخلافة العباسية في عصرها الاول الزاهر . ويقول في ذلك آدم ميتز (٢) : « كانت التجارة آنذاك مظهرا من مظاهر ابهة الاسلام وصارت هي السيدة في بلادها . وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد ، واخذت تجارة المسلمين المكان الاول في التجارة العالمية حتى كانت بغداد تقرر الاسعار للعالم في ذلك العصر في البضائع الكمالية على الاقل » .

البصرة

كانت التجارة البحرية ، خلال السنوات الهادئة من الخلافة العباسية، تمر في الدرجة الاولى من البصرة . كما ان التجارة النهرية بين البصرة وبغداد

(١) G. Wiet: L'Egypte Arabe, Paris 1937, T. IV, pp. 166-167.

(٢) تاريخ الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة ، القاهرة ١٩٤١ ج٢ ، ص ٣٦٥ .

كانت مزدهرة للغاية . واصبح ميناء البصرة ، في العصر العباسي الاول ، من اهم موانىء العالم التجارية ، وبلغت هذه المدينة المرتبة الثانية في الاهمية بعد بغداد في عهد الرشيد . وصارت « باب بغداد الكبير » ومدخل دجلتها المتدفق بضروب المتاع وانواع السلع المجلوبة من اطراف الدنيا . وكانت مقصد القوافل الواردة من كل حدب وصوب ومحط رحال الشرق والغرب من مجاهل الصين ومفاوز الصحراء الكبرى . وحق لها ان تتلقب « بقبة الاسلام » ، كما سماها بذلك الخليفة عمر بن الخطاب (٣) .

ولقد عمرت المدينة بالاسواق وامتلأت هذه الاسواق بسلع تجارة الشرق الغنية . وكان المربد اكبر اسواقها (٤) ، بل كان اكبر اسواق العالم قاطبـــة ، وهو الذي ورث سوق عكاظ في الجاهلية وصار يعرف بعكاظ الاسلام . وخير ما يعبر عن ذلك مقولة جعفر بن سليمان الهاشمي المشهورة : « العراق عين الدنيا ، والبصرة عين العراق ، والمربد عين البصرة وداري عين المربد » (٥) .

وقد عاش الجاحظ ، ابن البصرة ، عصر ازدهار البصرة (فيما بين منتصف القرن الثاني ومنتصف القرن الثالث الهجريين) ووصفها بقوله : « .. هي باب بغداد الكبير ومدخل دجلة المتدفق بضروب المتاع وانواع السلع المجلوبة من اطراف الدنيا » (٦) .

وكانت لاهالي البصرة سفن خاصة بهم يتاجرون بها في اعالي البحار ويصلون الى الهند والصين (٧) . وتركزت في هذه المدينة ، بسبب التجارة، طبقة التجار الواسعة الثراء . وورد في اهلها قول ابن الفقيه الهمداني ، الذي زارها حوالي سنة ٢٩٠ هـ، « ان ابعد الناس نجعة في الكسب بصري وحميري ومن دخل فرغانة القصوى والسوس الاقصى فلا بـــد ان يرى فيها بصريا وحميريا » (٨) . ولقد اشاد المقدسي (٩) بالبصرة قائلا : « الم تسمع بخـــز البصرة وبزها وطرائفها وبارزها هي معدن اللآلىء والجواهر وفرضة البحـــر ومطرح البر » .

---

(٣) سعيد الافغاني : اسواق العرب في الجاهلية والاسلام ، دمشق ١٩٦٠ ، ص٤٠١ ، ٤٠٢ .

(٤) تحدث ياقوت في معجمه عن المربد ذكر انه كان في الاصل سوقا للابل حتى اذا كان عهد الامويين صار سوقا عامة تتخذ فيه المجالس ويخرج اليها الناس كل يوم وتتعدد فيـــه الحلقات يتوسطها الشعراء والرجاز . وهو مجتمع العرب ومتحدثهم ومتنزه البصريين . (سعيد الافغاني : اسواق العرب ، ص ٤٠٨ ، ٤٠٩) .

(٥) الثعالبي : ثمار القلوب ، القاهرة (بدون تاريخ) ، ص ١٢٨ .

(٦) الجاحظ : التبصر بالتجارة ، تحقيق السيد حسن حسني التونسي ، دمشق ١٩٣٢ ، ص١ .

(٧) Navdi, R.: Industry and Commerce under the Abbasids, p. 255.

(٨) الهمداني : البلدان ، القاهرة ١٣٦٨هـ ، ص ٥١ .

(٩) احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ١٩٦٧ ، ص ١٢٨ .

وارتبط ازدهار البصرة بازدهار ميناء الابلة ، وهو ميناء صغير هام « يقع على شاطىء دجلة البصرة العظمى في زاوية الخليج الذي يدخل الى مدينة البصرة » (١٠) ، ما بين نهر دجلة ورافده نهر الابلة . وكان هذا الميناء يشارك البصرة في اهميتها التجارية في استقبال السفن القادمة من الشرق عبر الخليج والتي كانت تحمل سلع الشرق العظيمة القيمة ، وفي استقبال التجار العاملين في أعالي البحار (١١) . وكان قبل تاسيس البصرة المخرج الرئيسي على الخليج لتجارة دولة فارس (١٢) .

ولقد زار الابلة في سنة ٢٩٥هـ/٩٠٨م تاجر بحار من الاندلس ، يعرف باسم محمد بن معاوية المرواني ، وينحدر من سلالة الخلفاء الامويين بالاندلس وكان يسكن قرطبة ، وتحدث عن ازدهار التجارة بها وذكر انه وصل اليها بتجارة يقدر ثمنها بثلاثين الف دينار وتحتوي على سلع هامة من سلع الهند (١٣). وكان خالد بن صفوان يقول : « ما رايت ارضا مثل الابلة مسافة ولا أغذى نطفة ولا اوطأ مطية ولا أربح لتاجر ولا اخص لعائد » (١٤) .

« وابن خرداذبة (١٥) » هو أول الجغرافيين المسلمين الذين ذكروا الابلة واهميتها كمحطة تجارية كبرى في تجارة الشرق العالمية ، وذلك عند حديثه عن تجار اليهود الرازانية (١٦) . ولقد زار المدينة الرحالة الفارسي « ناصري خسرو » ، في منتصف القرن الخامس الهجري ، ووصف ازدهارها وما حوته

---

(١٠) ياقوت : معجم البلدان ، جا ، القاهرة ١٩٠٦ ، ص ٨٩

(وكان اسم الابلة اليوناني «ابولوغوس» Apologos وقد ذكره نيارخوس Nearchas البحار الاقريطشي ، وقد كان قائدا لاسطول الاسكندر الاكبر ، واشتهر برحلته البحرية التي طالت خمسة اشهر ، وقال فيها ان هذه المدينة مستودع تجارات خليج فارس (علي رضا ميرزا : الخليج الفارسي عبر القرون والاعصار ، طهران ١٣٩٤هـ ، ص ١٤٣) . ويرجع تاريخ تاسيس الابلة الى سنة ٢٢٠م (السير ارنولدت ويلسون : الخليج العربي ، ترجمة عبدالقادر يوسف ، الكويت ، ص ١٢٨) .

(١١) الاصطخري : مسالك الممالك ، ليدن ١٩٢٧ ، ص ٨١ .

(١٢) Wiet: Les Marchands d'epice, Le Caire 1955, p. 82.

(١٣) ويلسون : الخليج العربي ، ص ١٢٧ .

(١٤) ياقوت ، معجم البلدان ، جا ، ص ٨٩ ، ٩٠ .

(١٥) توفي ابن خرداذبة سنة ٣٠٠ هـ .

(١٦) عن هؤلاء التجار اقرا لكاتب هذا المقال كتابه : « تجارة مصر في البحر الاحمر » ، القاهرة ١٩٧٦ ، ص ٣٢ — ٣٥ .

هذه المدينة من قصور ومساجد وأسواق وخانات . كذلك ذكرها « الادريسي » بعد ذلك بقرن من الزمان وأفاد باستمرار ازدهارها (١٧) .

ونظرا لعلاقة ميناء الابلة بالهند فقد اطلق العرب على منطقة الابلـــة ارض الهند او فرج الهند . وظلت الابلة مركزا للتجارة البحرية مع الهند حتى حفرت قناة الابلة التي ربطت هذا الميناء بالبصرة . وجاء حفر هذه القنـــاة لتجنب دوارة كانت تقع في مدخل ميناء الابلة كانت تعيق مرور السفن الكبيرة. ولقد ادى ربط هذا الميناء بمدينة البصرة الى تضاؤل أهميته وأصبح ميناء ثانويا للبصريين بينما اصبحت البصرة هي المركز الرئيسي للتجارة الهندية .

صحار

اما صحار فتأتي أهميتها في انها كانت محطة للملاحين وهم هابطين في سفنهم من الخليج محاذرين قراصنة البحرين وقطر والساحل الايراني والقراصنة الذين يأوون الى الشعاب المختلفة في البحر . وكانت السفن تتوقف فيها وفي توامها مسقط ، ومنها تمخر السفن الى المحيط مباشرة الى مدينة كولم ملي (كويلون) في جنوب ملبار (١٨) .

ولقد تحدث المقدسي (الذي عاش في القرن الرابع الهجري) عن ازدهارها في القرن الذي عاشه والقرن السابق له ، ووصف انتعاشها بقوله عنها: (١٩) « هي قصبة عمان ليس على بحر الصين اليوم بلد أجل منه عامر آهل حسن طيب نزه ذو يسار وتجار وفواكه وخيرات أسرى من زبيد وصنعاء . أسواق عجيبة وبلدة ظريفة ممتدة على البحر . دورهم من الآجر والساج شاهقة نفيسة والجامع على البحر له منارة حسنة طويلة في آخر الاسواق ولهم آبار عذبة وقناة حلوة وهم في سعة من كل شيء . دهليز الصين وخزانة الشرق والعراق ومغوثة اليمن » (٢٠) .

واكد ابن حوقل هذه المكانة التي احرزتها صحار بسبب التجارة بقوله انه لا توجد مدينة اكثر عمارة ومالا منها على سواحل الخليج العربي كلها (٢١). كذلك كرر ياقوت في معجمه (٢٢) مقولة المقدسي عنها وعن ازدهار مكانتها .

---

(١٧) ويلسون ، الخليج العربي ، ص ١٢٩ .

(١٨) صالح العلي : التنظيمات الاجتماعية ، بيروت ٦٩ ، ص ٢٥٩ .

(١٩) حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة واوائل القرون الوسطى، ترجمة السيد يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٥٨ ، ص ٢٠٨ .

(٢٠) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، لندن ١٩٦٧ ، ص ٩٢ .

(٢١) ابن حوقل : صورة الارض ، ص ٤٥ .

(٢٢) ياقوت : معجم البلدان ، المجلد الثالث ، بيروت ١٩٥٧ ، ص ٣٩٣ .

سيراف

اما سيراف (٢٣) (شيرآب) (٢٤) التي بناها العباسيون على الجانب الشرقي من الخليج العربي لخدمة تجارة الشرق ولاستقبال السفن الكبرى القادمة من اعالي البحار والتي كان يتعذر عليها دخول دجلة بسبب الرمال التي كانت تأتي مع مياه هذا النهر وتسد مدخله . فقد ازدهرت ونافست البصرة وغدت من أهم المدن التجارية في العالم ما بين القرنين الثاني والرابع الهجريين (٢٥) ، وصارت محطة للسفن القادمة من الصين والمتجهة اليها من ميناء كانتون . وظلت سيراف لفترة ثلاثة قرون تشارك البصرة في السيادة على تجارة الخليج (٢٦) .

وذكر ياقوت أن ميناء المدينة يسمى « باند » وهو يقع في خليج ضارب بين جبلين واذا أدركته السفن امنت فيه من جميع أنواع الرياح . كما ذكر أن بين سيراف والبصرة تستغرق الرحلة سبعة أيام اذا طاب الهواء (٢٧) .

وجاء أول ذكر لسيراف على لسان سليمان التاجر وابي يزيد (زيد) السيرافي في القرن الثالث الهجري وجاء وصف أبو يزيد لها بقوله : « .. هي الفرضة العظيمة لفارس وهي مدينة عظيمة ليس بها سوى الابنية حتى يجاوز على نظر عملها وليس بها شيء مأكول ولا مشروب ولا ملبوس الا ما يحمل اليها من البلدان ولا بها زرع ولا ضرع ومع ذلك فهي (بسبب تجارة اهلها) اغنى بلاد فارس » (٢٨) .

ووصف الاصطخري (في القرن الرابع الهجري) مدينة سيراف بأنها اهم مدينة في مقاطعة أردشير بعد شيراز وانها لا تقل حجما عن شيراز وبيوتها

---

(٢٣) لقد تحدثت عن مدينة سيراف في بحث نشرته بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية بعنوان « سيراف وكيش وعدن من القرن الثالث الهجري حتى السادس » ، المجلد ٢٣ لسنة ١٩٧٦ ، ص ٥٣ — ٧٢ .

(٢٤) وهو أصلها بالفارسية ومعناها : ماء اللبن ، وقد عربت فقيل سيراف . وقيل انها كانت قصبة كورة أردشيرخرة من اعمال فارس والتجار يسمونها شيلاو (ياقوت : معجم البلدان ، القاهرة ١٩٠٦ ، جـ ٥ ، ص ١٩٣) .

(٢٥) Wiet: L'Egypte Arabe, p. 167.

(٢٦) ويلسون : الخليج العربي ، ص ١٧٥ .

(٢٧) ياقوت : معجم البلدان ، جـ٥ ، ص ١٩٣ .

(٢٨) أبو يزيد السيرافي : اخبار الصين والهند ، نشر رينو ، باريس ١٨٤٨ ، جا ، ص١٤، ١٥ .

من خشب الساج المستورد من زنجبار ولها عدة طوابق . وان المدينة تقع على ساحل البحر وتغمرها البنايات الضخمة ، وانها آهلة بالسكان ، والسكان يفخرون ويعتنون بحسن تنسيق بيوتهم حتى أن بعضا منهم كان ينفق ثلاثين الف دينار في بناء منزله واحاطته بالبساتين . واضاف الاصطخري بأن أهل سيراف بلغوا مبلغا كبيرا من الثراء بسبب الازدهار التجاري الذي كانت تعيش فيه مدينتهم آنذاك . فقال عنهم أنهم كانوا أيسر أهل فارس والخليج لان منهم من تجاوز ماله ستون مليون درهم لم يكتسبها الا من تجارة البحر . واختتم الاصطخري حديثه عنها بالاشارة الى انتشار اهلها في مدن سواحل الخليج كلها (٢٩)

ولقد أعطانا ابن حوقل نفس وصف الاصطخري عنها ، لنقله مادته عنه ، ونستنتج من وصفه أن المدينة كلها كانت مخصصة للتجارة ، أو بمعنى اصح ، كانت « متجرا كبيرا » . ويؤكد المقدسي (القرن الرابع الهجري) منافسة سيراف للبصرة في المكانة وفخامة بيوتها فقال عنها « ان بيوتها كانت أفخم ما رأيت » (٣٠) . وذكر ياقوت أنه رأى سيراف وشاهد بها آثار عمارة حسنة وجامع مليح على سواري ساج (٣١) . وتحدث ابن البلخي (القرن السادس الهجري) عن سيراف وذكر أنها كانت عامرة آهلة بالسكان كثيرة البضائع لكونها الميناء الذي تقف فيه السفن وتؤمه القوافل التجارية . واضاف بأنها ظلت مركزا تجاريا عظيما حتى آخر ايام حكم البويهيين (٣٢) .

ولقد نبغ اهالي سيراف في الملاحة في مياه الخليج ومياه المحيط الهندي (بحر الزنج) وتوارث الابناء عن الاباء أسرار الملاحة في هذه المياه حتى اصبحت هنالك عائلات في سيراف تتوارث الملاحة الى شواطىء الهند ، (٣٣) وتعرف مواقيت هبوب الرياح من الهند واليها . يقول المسعودي .. « وكل من يركب هذه البحار من الناس يعرفونها في أوقات تكون فيها مهابها قد علم ذلك بالعادات وطول التجارب يتوارثون علم ذلك قولا وعملا ولهم فيها دلائل وعلامات يعملون بها ابان هيجانه واحوال ركوده وثورانه » (٣٤) .

---

(٢٩) الاصطخري : مسالك الممالك ، ص ١٥٤ .

(٣٠) المقدسي : احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، جا ، ص ١٨٠ .

(٣١) ياقوت : معجم البلدان ، جه ، ص ١٩٣ .

(٣٢) ويلسون : الخليج العربي ، ص ١٧٧ ، نقلا عن ابن البلخي .

(٣٣) Sauvaget: Instructions Nautiques Arabes jour mers de L'Inde, Journal Asiatique, 1948, t. 236, pp. 16-18.

(٣٤) المسعودي : مروج الذهب ، بيروت ١٩٦٥ ، جا ، ص ١٢٨ .

وكان لاهالي سيراف سفن كبرى تختلف عن سفن بحر القلزم (البحر الاحمر) التي كانت تعرف بالجلاب ، والتي كانت لا تحتمل السفر في المحيط الهندي ولا تتحمل تقلبات تياراته (٣٥) . وأورد المسعودي انه سافر من الخليج العربي في هذه السفن مرات عديدة مع تجار من سيراف وأشاد بمهارة الملاحين السيرافيين وتحديهم للاخطار التي كانت تتعرض لها سفنهم . يقول المسعودي ما نصه : « ركبت أنا هذا البحر (المحيط الهندي) من مدينة سنجار من بلاد عمان مع جماعة من نواخذة السيرافيين ، وهم أرباب المراكب ، مثل محمد بن الريدوم السيرافي وجوهر بن احمد وهو المعروف بابن سيرة ... وآخر مرة ركبت فيه في سنة أربع وثلثمائة من جزيرة قنبلو الى مدينة عمان وذلك في مركب أحمد وعبدالصمد اخوي عبدالرحيم بن جعفر السيرافي بميكان وهي محلة من سيراف وفيه غرقا في مركبهما وجميع من كان معهما ... وكان ركوبي فيه اخيرا والامير على عمان احمد بن هلال بن اخت القيتال » (٣٦) .

ولقد استمرت سيراف مزدهرة بسبب ازدهار مينائها ووصول سفن أعالي البحار اليها حتى منتصف القرن الخامس الهجري (٣٧) ، حين تحول الازدهار التجاري عنها الى ميناء جزيرة قيس (كيش) (٣٨) .

• طريق التجارة للهند

وكان طريق التجارة للهند ، المتبع في العصر العباسي الاول ، يبدأ من البصرة أو سيراف حتى ساحل ملبار الى سرنديب (سيلان) وجاوة ثم الى الصين . وهو الطريق الذي ذكر سليمان التاجر السيرافي انه كان طريق رحلاته وفصل وصفه في كتابه « صلة الصين والهند » (٣٩) . وكان على الملاحين ، وهم هابطون من الخليج محاذرة قراصنة البحرين والقراصنة الذين

---

(٣٥) Wiet: Les Marchands d'epice, p. 82.

(٣٦) المسعودي : مروج الذهب ، جا ، ص ١٢٣ .

(٣٧) تحدث ياقوت عن هجران سيراف وخرابها وقال ما نصه « منذ ان عمر ابن عميرة جزيرة قيس صارت فرضة الهند واليها منقلب التجار وخربت سيراف وغيرها ولقد رايتها وليس بها قوم الا صعاليك ما أوجب لهم المقام بها الا حب الوطن (معجم البلدان ، جه ، ص١٩٢)».

(٣٨) اصاب المدينة زلزال سنة ٣٦٧هـ/٩٧٧م دمر جزءا منها فادى هذا التدمير الى زيادة هجرها وعزلتها بعد ان تحولت تجارة الخليج عنها الى جزيرة قيس المجاورة . ومع مرور الزمن تحولت المدينة الى خرائب واطلال . وما زالت هذه الاطلال قائمة على مسافة ميل من غربي مدينة بندر طاهري ومسافة ٢٠٠ ميل جنوبي شرق ميناء بوشهر الايراني الشهير. (Lamb: Avisit to Sarif, JRAS, V. 37, part I 1964, p. 2).

(٣٩) قام بنشره رينو Reinaud ، باريس ١٨٤٨
عند الهبوط من الخليج تتجه السفن الى صحار ومسقط وتتزود هنالك بالماء ثم تبحر مباشرة الى كولم ملي (كويلون) جنوب ملبار .

كانوا يأوون الى الشعاب المختلفة في البحر وكانوا يعرفون باسم « متجـرمة البحـر » .

وكان أمام السفن طريقان الى الهند فكانت تستطيع التوقف في صحار ومسقط ، وهما ميناءان على ساحل عمان يغصان بالحركة والحياة فتتزود بقدر طيب من الماء ثم تمخر المحيط الهندي مباشرة الى كولم ملي (كويلون الحالية) في جنوب ملبار . وهذا هو الطريق الذي وصفه سليمان وكانت تسلكه بطبيعة الحال السفن التي تقطع الرحلة الطويلة الى الصين (٤٠) . وكانت السـفن تستطيع ايضا قطع الرحلة على طول السواحل مارة بجزيرة قيس (كيش) وهرمز القديمة والديبل والمنصورة أو غيرهما من موانىء السند . وكـان يجب بعد السند اتخاذ الحيطة من القراصنـة المعروفين في خليجـي كيش وكاثيوار وكان هؤلاء القراصنة يغيرون في بوارجهم على ارجـاء فسيحة مـن المحيط الهندي . وكانوا يبلغون احيانا مصب دجلة والجزء الجنوبي من البحر الاحمر وسواحل سيلان . وكانت جزيرة سوقطرة من أهم أوكارهم (٤١) . وجاءت اشد الهجمات خطرا من شعب أو جماعـة الميـذ (او الميد) الذين اشتهروا في البحر ، كما يقول ابن خرداذبة (٤٢) ، وكانوا يسكنون في غرب حوض السند وكانت مركزهم بلدة سرست أو سرشت (٤٣) .

الأهوال الطبيعية

كانت السفن تلاقي أهوالا كثيرة في رحلتها الى الهند والصين بسبب صعوبة الملاحة في المحيط الهندي ووجود مكان للخطر فيه يتهدد السفن الصاعدة والهابطة . ولقد تحدث الجغرافيون المسلمون عن مكامن هذه الاخطار . فذكر المسعودي انه بالقرب من الابلة موضع معروف بالجرارة ، « وهي دخلة في البحر الى البر تقترب من الابلة ولهذه الجرارة اتخذت الخشبات في فم البحر مما يلي الابلة وعبادان عليها اناس يوقدون النار بالليل على خشبات ثلاث كالكرسي في جوف الليل في جوف البحر خوفا على المراكب الواردة من عمان وسيراف وغيرها

---

(٤٠) حوراني : العرب والملاحة في المحيط الهندي في العصور القديمة واوائل القرون الوسطى ، ص ٢٠٨ .

(٤١) انظر فيما بعد .

(٤٢) حوراني : نفس المصدر السابق ، ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(٤٣) المسالك والممالك ، ليدن ١٨٨٩ ، ص٦٢ ، (وصفهم ابن خرداذبة بقوله : الميد لصوص).

ان تقع في تلك الجرارة وغيرها فتعطب فلا يكون لها خلاص » (٤٤) .

وذكر الاصطخري أن من مخاطر بحر الزنج وجود هوارات كثيرة ومعاطف صعبة ومن اشدها ما بين جنابة والبصرة « وهو مكان يسمى هورجنابة وهو مكان مخيف لا تكاد تسلم منه سفينة عند هيجان البحر وبها مكان يعرف بالخشبات من عبادان على نحو ستة ايام على مجرى ماء دجلة الى البحر ويرى الماء حتى يخاف على السفن الكبار أن سلكته ان تجلس على الارض الا في وقت المد وبهذا الموضع خشبات منصوبة قد بني عليها مركب يسكنه ناطور يوقد بالليل ليهتدى به ويعلم به المدخل الى دجلة وهو مكان منحرف اذا ضلت السفينة فيه خيف انكسارها لرقة الماء » (٤٥) .

ووصف المسعودي هذه الاهوال التي لاقاها اثناء سفرياته في هذا المحيط بقوله : « وقد ركبت عدة من البحار كبحر الصين والروم والخزر والقلزم واليمن واصابني فيها من الاهوال ما لا أحصيه كثرة فلم اشاهد اهول من بحر الزنج والسند » (٤٦) .

اما عن الموسم الذي كان الملاحون والتجار العرب يبحرون فيه عامة في الجزء الغربي من المحيط الهندي فهو — كما ورد على لسان المسعودي — عندما تكون الشمس في القوس ، اي في النصف الثاني من نوفمبر والنصف الاول من ديسمبر . ويمدنا كتاب اخبار الصين والهند بأزمنة الرحلة الى الصين فيقول أن الرحلة من مسقط الى كانتون كانت تستغرق ١٢٠ يوما عدا فترات الوقوف في الموانىء . ولهذا يجب أن نقدر ستة شهور أو اكثر للرحلة كلها من البصرة أو سيراف ويشمل ذلك فترات التوقف في الطريق . وكانت رحلة الذهاب والعودة معا تستغرق عاما ونصف عام ، وكان الرجال يقضون الصيف بين أهليهم قبل الرحلة التالية (٤٧) .

سفن الهند والصين

والباحثون يذكرون ان ساحل ملبار ومملكة الدكن في ظل اسرة راشتراكوتا في القرن الثاني والثالث الهجري قامت بينها وبين العرب المسلمين علاقات

(٤٤) شاكر مصطفى ، دولة بني العباس ، جا ، الكويت ١٩٧٣ ، ص ٢٤٣ ، ٢٤٤ .
(٤٥) الاصطخري : مسالك الممالك ، ص ٤٢ .
(٤٦) المسعودي : مروج الذهب ، جا ، ص ١١٩ .
المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ١٢ .
(٤٧) المسعودي : مروج الذهب ، جا ، ص ١٢٣ .

اقتصـــادية قـــوية وكان تجارهم يفدون الى بلاد الدكن فيقابلون بالحفـــاوة والترحاب . وكانوا يأخذون منها خشب الساج لبناء السفن كما يتمتعون فيها بالحرية الدينية وينشئون الجاليات المقيمة ولا سيما في ميناء كولم ملي (كويلون الحالية) (٤٨) . وذكر ابو يزيد السيرافي أن اكثر السفن الصينية كانت تحمل تجارتها من سيراف وتنتهي عند كانتون في الصين مرورا بالهنـــد . ووصف كانتون (خانفو) بأنها مجتمع التجار وأنه كان بها رجل مسلم يوليه صـــاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون تلك الناحية ، يرضى عنه ملـــك الصين ويصلي في العيد بالمسلمين ويخطبهم ويدعو للخليفة العباسي (٤٩) . ويقول السندباد (٥٠) بصدد رحلاته الى الهند في حكايته الثالثة : « لما اشتقت الى المتجر شددت الاحمال والثقال والامتعة وسافرت من بغداد حتى وصـــلت ساحل البحر ومعي من البضائع فنزلت في البحر مع تجار أخيار وسرنا أيـــام وليالي مدة من الزمان نبيع ونشتري ونأخـــذ ونعطي في تجارة وربح بـــلا خسارة » (٥١) . وأورد السندباد في حكايته السادسة أنه وصل من الخليج الى جزيرة سرنديب (سيلان) بالهند وأنه قابل ملكها وحمل منه هدايا الى الخليفة هارون الرشيد . كذلك ذكر السندباد ، في حكايته السابعة ، انه سلم هدايا الى ملك سرنديب (سيلان) من الخليفة الرشيد (٥٢) .

● الازدهار الاقتصادي

ولقد انعكس ازدهار تجارة الخليج على مجتمع الدولة العباسية ، فـــي العصر العباسي الاول ، فيما حققه هذا المجتمع من ازدهار اقتصادي ورواج اجتماعي لم يقتصر على خاصة الدولة بل شمل عامة الشعب . وحظت طبقة تجار اعالي البحار بالمكانة الممتازة وجمعت الثروة الطائلة آنذاك . وقد كتب الجاحظ (ت ٢٥٥هـ) كتيبا خاصا بالتجارة أسماه « في مدح التجار وذم عمال السلطان » قرر فيه أن تجار بغداد والبصرة والخليج عمـــوما كانوا في وضع

---

(٤٨) شاكر مصطفى : دولة بني العباس ، جـ٢ ، ص ٢٧٣ .

(٤٩) أبو يزيد السيرافي : اخبار الصين والهند ، جـ١ ، ص ١٤ .

(٥٠) كان السندباد البحري تاجرا يعيش أيام الرشيد وكان يركب البحر من البصرة ويسير في المحيط الهندي ويتاجر في بلاد الهند ، وقد أورد الزمخشري في كتابه «تاريخ السندباد» (مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ١٢٢٨) سبع حكايات على لسان السندباد تحكي تفاصيل رحلاته التجارية الى الهند .

(٥١) الزمخشري : تاريخ السندباد ، ورقة ١٣أ .

(٥٢) الزمخشري : نفس المصدر السابق ، ورقة ٣٧ أ .

اجتماعي ومالي طيب ، وانهم نافسوا الخلفاء في ثرائهم (٥٣) ، وان هذه المكانة والثروة تحققت لهم بسبب سلع الشرق المرتفعة القيمة التي كانوا يتجرون فيها ويقومون ايضا بدور الوسيط التجاري بين الشرق والغرب .

سلع الشرق الغنية

ــ التوابل : وتأتي التوابل والعطور والعقاقير الطبية على راس قائمة سلع الشرق الغنية وقد جاءت هذه السلع محملة في سفن الخليج من بلاد الهند والصين والهند الصينية .

ويعتبر الفلفل من اهم هذه التوابل ، وهو على ثلاثة انواع واحسنها الاسود الناضج بعد تحميصه (٥٤) ، وهو يستخدم في الطعام وعلاج بعض الامراض وادخاله في حفظ الطعام . وكان الفلفل يرد من الهند وساحل ملبار (٥٥) .

ــ العقاقير الطبية : أما العقاقير الطبية وهي تعني الادوية بمفهومها العام، فيدخل ضمن سلعها : القرفة (الدارصيني) ، القرنفل ، الخلجان ، الزنجبيل ، الرواند ، البلسم ، الكافور ، العود الهندي ، الحبهان ، جوزة الطيب ، الزعفران ، والتوتيا .

وكانت القرفة تعرف في فارس باسم « خشب الصين » وعرفها الغربيون باسم أوراق الهند . وكانت ترد من بلاد الصين (٥٦) ومن جزيرة سرنديب (سيلان) (٥٧) وكان القرنفل يرد من الهند (٥٨) وسرنديب . اما تابل الخلجان فهو من المواد كثيرة الاستعمال في الطب وشجرته تعرف باسم «خسرودار» (٥٩)

---

(٥٣) De Somogyi : Trade in Classical Arabic Literature, WM. vol. LV, No. 2, 1965, p. 131.

(٥٤) نعيم زكي : طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٩٩ .

(٥٥) Lopez : Medieval trade in the Mediterranean World London 1955, p. 28.

(٥٦) القزويني : آثار البلاد واخبار العباد ، بيروت ١٩٦٠ ، ص٥٤ .

(٥٧) نفس المصدر السابق ، ص ٨٣ .

(٥٨) أوتوسبيز : وصف مملكة الهند والسند من كتاب مسالك الابصار للعمري ، ليزج ١٩٤٣ ، ص ٣ ، ٤ .

(٥٩) نعيم زكي : طرق التجارة ، ص ٢٠٥ .

ويرد من الهند والصين . كذلك يرد من الهند الزنجبيل الذي يدخل في صناعة العقاقير الطبية والطهي ، والاهليلج (٦٠) الذي يستخدم لشفاء أمراض المعدة والامعاء . ويرد منها الحبهان وجوز الطيب ، كما يرد منها الكافور والزعفران . والبلسم من العقاقير الطبية الشرقية التي نالت شهرة عظيمة في العصور الوسطى في الشرق والغرب على السواء ، وهو من انتاج شجرة البلسان ، ويستخدم في علاج الامراض الروماتزمية . وكان بلسم مصر هو المطلوب في أسواق عالم العصور الوسطى . أما حجر التوتيا فكان يستخدم في تحضير سوائل العلاج لامراض العيون . كما انه كانت تعالج به القروح السرطانية(٦١) ويرد الراوند من مدينة كولم ملي (كويلون) بالهند (٦٢) وسرنديب ، ولقد ذكر ابن خرداذبة انه يوجد في سرنديب من العقاقير ما لا يوجد في غيرها (٦٣) . ويدخل الزعفران (الكركم) ضمن العقاقير الطبية وأفضل انواعه الواردة من أسبانيا (٦٤) . ويعد الكافور من أنواع السلع التي كثر استخدامها في صناعة العقاقير الطبية في العصور الوسطى وكان يرد من الهند وجزر الهند الشرقية والصين وجزيرة سرنديب . ويدخل العود الهندي في صناعة العقاقير الطبية ويجلب من جزيرة سقطرى (٦٥) . أما جوز الطيب فمصدره الهند وجزر الساحل الشرقي واحسن أنواعه ما يرد من جاوة وسومطرة من جزر الهند الشرقية .

ـ **العطور والبخور** : ولم تقتصر تجارة الشرق على التوابل والعقاقير الطبية فقط انما شملت كذلك العطور والبخور ومن انواعها : عود الند ، والمسك ، وخشب الصندل ، والعنبر ، واللادن ، والمصطكى (المستكة) ، واللبان الجاوي . وقد ورد معظمها من أسواق الهند والصين وفارس وشبه الجزيرة العربية .

ويأتي عود الند على راس قائمة الاخشاب العطرية الشرقية الواردة من بلاد الهند والصين وجزيرة سرنديب وجاوة . كذلك المسك وهو انتاج حيواني يؤخذ من الحيوان المعروف باسم « قط الزباد » (٦٦) . وكان المسك يرد من التبت ، ويقول اليعقوبي ان مسك التبت هو احسن واغلى انواع المسك في

---

(٦٠) الاهليلج ثمرة تشابه الخوخ والبرقوق وهي سلعة تجارية مستخدمة في الطب .
(٦١) نعيم زكي : نفس المصدر السابق ، ص ٢١٩ .
(٦٢) القزويني : اثار البلاد ، ص ١٠٧ .
(٦٣) المسالك والممالك ، لندن ١٨٨٩ ، ص ٧٠ .
(٦٤) نعيم زكي : طرق التجارة ، ص ٢١٩ .
(٦٥) نفس المصدر السابق ، ص ٢١٦ .
(٦٦) وهو نوع من الظباء يعيش في التبت والصين ويرعى الحشائش ويوجد المسك في غدة في بطنه

العالم (٦٧) ويليه في المرتبة مسك الصين الوارد من خانفو (كانتون) أهــم موانيه (٦٨) .

ومن اخشاب العطور التي شاع استعمالها بكثرة في العصور الوسطى وكانت ترد ضمن تجارة الشرق الغنية خشب الصندل الذي يحتوي على عطر طبيعي نفاذ . واصل خشب الصندل من جزر المحيط الهندي والهند الصينية . وكانت أسواق سيراف تزخر بأنواعه الممتازة (٦٩) .

— **العنبر** : واحتل العنبر مكان الصدارة بين انواع عطور الشرق الممتازة. وتجيء أجود أنواعه من جزر المحيط الهندي وشاطىء كروماندل شرقي الهنــد وسرنديب والصـــين (٧٠) ، وسواحل جنوب الجزيرة العربية (٧١) . وقــد لعب العنبر دورا كبيرا في اقتصاديات الخلافة واصبح يعادل اللؤلؤ من حيــث كونه موردا هاما للخراج في عصر الرشيد . ويقبل العطارون في مختلف الاقطار على العنبر لدخوله في صناعة الطيب وفي تثبيت العطور (٧٢) .

واللادن احد أنواع البخور وافضل انواعه ما جاء من سواحل آسيــا الصغرى (٧٣) . كذلك من انواعه المصطكى (المستكة) الذي يكثر نمو أشجاره في جنوب الجزيرة (٧٤) . ويعد اللبان الجاوي من افضل أنواع البخور ويرد من جزر الهند الشرقية .

ومن السلع التجارية التي استخدمت في الاغراض الصناعية وفي الطب وحملتها سفن الشرق الصموغ ومنها صمغ اللك . وجاء صمغ اللك من الهند والهند الصينية ويحمل من اليمن ايضا الصمغ العربي الى مختلف الاقطار (٧٥) .

---

(٦٧) اليعقوبي : البلدان ، نشر فييت ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٣٤ .

(٦٨) المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الاقاليم ، ليدن ١٩٦٧ ، ص ٩٧ .

(٦٩) Clerget: Le Caire, etude geographic urbaine et d'histoire economique, T. I, Le Caire 1934, p. 362.

(٧٠) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٩٧ .

(٧١) Reinaud: Relation des Voyage, T. II, p. 138.

(٧٢) عبدالله الغنيم : جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك للبكري ، الكويت ١٩٧٧، ص١٢٧

(٧٣) Heyd: Histoire du Commerce du Levant au Moyen Age, II, Leipzig 1925, p. 630.

(٧٤) الدمشقي : الاشارة الى محاسن التجارة ، القاهرة ١٣١٨هـ ، ص ٢٢ .

(٧٥) عبدالله الغنيم : جزيرة العرب ، ص ١٢٧ .

ـ مواد الصباغة : ومن المواد التي كانت ترد ضمن تجارة الشرق وتدخل في الاغراض الصناعية مواد الصباغة ، ومن اشهر هذه المواد : النيلة والشب. وترد النيلة من الهند ومن بلاد فارس ، ومن مدينة هرمز على الخليج . وكذلك يرد البقم وهو نوع من أنواع الصبغات من سرنديب (٧٦) . ويحمل من اليمن الورس الذي يصنع منه اللون الاصفر الذي يستخدم في صباغة الملابس وتستخدمه النساء أيضا مادة للتجميل . ومن ذلك ايضا السنا الحرمي الذي يحمل من مكة ويستخدم في صباغة الشعر اذ يخلط بالحناء فيعطي اللون الاسود (٧٧) . كذلك يأتي من بلاد اليمن نبات اللك الذي يؤخذ من عصارته صبغ احمر يصبغ به جلود البقر والمعز وغيرها (٧٨) . اما الشب فكان يرد الى أسواق الشرق الاوسط من شمال افريقيا ، والموانيء الاغريقية وجنوب الجزيرة وجزيرة سقطرى (٧٩) .

ـ العاج : والعاج من السلع التي كانت تحملها تجارة الشرق في العصور الوسطى من بلاد السند (٨٠) والصين وشرق أفريقيا. كذلك الخزف الصيني من بلاد الصين والورق (الكاغد) ، والحبر (المداد) ، واللباد ، والسجاد الفاخر (٨١) .

ـ خشب الساج: أما خشب الساج الذي كانت تصنع منه السفن واسقف المنازل فان أجود أنواعه كانت تأتي من مدينة كولم ملي (كويلون) بالهند . ولقد ذكر القزويني أن بهذه المدينة منابت الساج المفرط الطول وربما جاوز مائة ذراع أو اكثر (٨٢) . كذلك كان يأتي الخيزران من هذه المدينة ، وخشب القسى من الجزيرة العربية (٨٣) .

ـ الاحجار الكريمة : أما الاحجار الكريمة فيأتي الياقوت من الصين (٨٤) والزمرد والزبرجد من سرنديب (٨٥) والفيروز من بلاد فارس واللازورد من

---

(٧٦) القزويني : اثار البلاد ، ص ٨٣ .
(٧٧) عبدالله الغنيم : جزيرة العرب ، ص ١٢٧ .
(٧٨) نفس المصدر السابق ، ص ١١٩ .
(٧٩) نعيم زكي : طرق التجارة ، ص ٢٣٨ .
(٨٠) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ٤٨١ .
(٨١) Lopez : Op. Cit., p. 28.
(٨٢) اثار البلاد ، ص ١٠٧ .
(٨٣) الجاحظ ، التبصر بالتجارة ، دمشق ١٩٣٢ ، ص ٢١ .
(٨٤) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٩٧ .
(٨٥) القلقشندي : صبح الاعشى ، القاهرة ١٩١٩ ، ج ١ ، ص ٣٤٨ .

الهند الصينية ، والعقيق من الهند واليمن واللؤلؤ من الخليج وبحر عمان (٨٦) والماس من الهند . كذلك كان معدن الرصاص يرد من جزيرة سومطرة (٨٧) ومعدن الكبريت الاصفر ومعدن النحاس من كولم ملي (كويلون) بالهند (٨٨) ، ومعدن الحديد من الصين (٨٩) .

ــ **الحرير الخام والثياب :** ويأتي من الصين الحرير الخام والمنسوجات الحريرية الغالية الثمن (٩٠) ، كما تأتي من بلاد السند الثياب والبسط ومن كولم ملى الثياب المتخذة من الحشيش والثياب القطنية المخملة (٩١) والبسط والنعال النفيسة والفيلة (٩٢) . ويأتي من الصين أيضا الشروب وجلود النمور والسروج والسمور (٩٣) . والجلود المدبوغة والدروع والسيوف تأتي من اليمن (٩٤) .

ــ **سلع مصر :** ومن مصر كان يرد السكر والموالح والمنسوجات بمختلف اشكالها وبخاصة المنسوجات الكتانية الراقية والاثواب المصنوعة من القصب (٩٥) .

ــ **سلع الغرب :** ومن سلع الغرب التي لقت رواجا في تجارة الشرق المعادن والاخشاب والاسلحة والجوخ والشمع والفراء والصوف والموالح والنبيذ والرقيق . وكانت مناطق جلب الرقيق تتمثل في بلاد الاغريق وحول بحر قزوين وارمينيا ومناطق البحر الاسود وآسيا الصغرى وبلاد القوقاز والجركس، فضلا عن رقيق افريقيا (٩٦) .

---

(٨٦) الجاحظ : التبصر بالتجارة ، ص ١٢ ، عبد الله الغنيم : جزيرة العرب ، ص ١٢٧ .
(٨٧) ابو الفداء : تقويم البلدان ، باريس ١٨٤٠ ، ص ٣٧٥ .
(٨٨) القزويني : اثار البلاد ، ص ١٠٧ .
(٨٩) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ٩٧ .
(٩٠) الخاصكي : أخبار الصين والهند ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ٢٢٨١ ، ورقة ٢٨ ب .
(٩١) ابن خرداذبة : المسالك والممالك ، ص ٧٠ .
(٩٢) المقدسي : احسن التقاسيم ، ص ٤٨١ .
(٩٣) ابن خرداذبة : نفس المصدر السابق ، ص ٧٠ .
(٩٤) الثعالبي : لطائف المعارف ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٦٦ .
(٩٥) ابن زولاق : فضائل مصر ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس ، رقم ١٨١٦ ، ورقة ٣٥أ .
(٩٦) نعيم زكي : طرق التجارة ، ص ٢٢٠ .

ولقد استمر تدفق سلع الشرق الغنية على بغداد وبلاد العراق وموانىء الخليج طيلة العصر العباسي الاول ، وقامت هذه البلاد بدور الوسيط التجاري الكامل بين تجار الشرق والغرب . الا ان هذا التدفق تعرض للتوقف ، وجاء ذلك نتيجة ازدياد خطر القرصنة والتجرم في مياه الخليج . وكان مصدر هـذا الخطر جماعة القرصان الذين عرفوا باسم الميذ او الميد الذين ازداد نفـوذهم وتجرمهم بشكل واسع ما بين سنتي ١٤٠ و ١٥٣هـ أيام خلافة ابي جعفـر المنصور . ولقد وصلت ضربات هؤلاء المتجرمة الى البصرة نفسها وعطلت التجارة فيها وحدت من حركة الملاحة في مينائها . ونسمع صدى هذا الخطر من خلال السطور القليلة التي كتبها لنا المؤرخ البصري خليفة بن خياط (الذي عاش جانبا من العصر العباسي الاول الى نهايته) ونستشف من قول هـذا المؤرخ ان السبب في ازدياد خطر القرصان في الخليج آنذاك انما يرجع الى ضعف الاسطول العباسي في هذا الخليج وعدم مقدرته عـلى حماية موانيـه والتصدي لهؤلاء القراصنة (٩٧) .

جماعة الميذ (الميد)

وتتكرر اخبار هجمات متجرمة البحر (الميذ) في الخليج في تاريخ ابن خياط خاصة في الفترة ما بين سنتي ١٤١ ـ ١٥٣هـ في عهد الخليفة المنصور . ويؤكد هذا المؤرخ قيام هذا التجرم واشتداده في بحر البصرة والخليج في ذلك الوقت على يد شعب او جماعة الميذ . ويتردد ايضا صدى خطر الميـذ على تجارة الخليج واغاراتهم على سفن المسلمين التجارية من خلال المصادر الاسلامية الاصيلة المعاصرة ، فنسمع البلاذري يتحدث عن خطرهم بقوله : « .. الميذ الذين يقطعون البحر ويبدو انهم اشتهروا بذلك واتخذوه عملا دائما خلال القرنين الثاني والثالث الهجريين حتى اضحت مغزى اهل البصرة وموضع عدائها وهجومها الدائم » (٩٨) .

---

(٩٧) جاء أول ذكر عن الميذ في تاريخ ابن خياط عند تسميته لعمال الخليفة الاموي هشام عبد الملك فذكر ان هذا الخليفة ولى على السند الحكم بن عوانة الذي قتلته الميذ واستخلف بعـده على السند محمد بن عرار الكلبي (خليفة بن خياط ، تاريخ خليفة بن خياط ، تحقيـق أكرم ضياء العمري ، بيروت ١٩٧٧ ، ص ٣٥٩) .

(٩٨) البلاذري : فتوح البلدان ، القسم الثالث ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٥٤٤ .

ونسمع المسعودي (٩٩) يقول عنهم : « في نهر مهران السند (فــرج بحر السند) جنس من السند يقال لهم الميد وهم خلق عظيم حزب لاهل المنصورة ولهم بوارج في البحر تقطع على مراكب المسلمين المجتازة الى ارض الهند والصين وجدة والقلزم وغيرها كالشواني في بحر الروم » . ونسمع ابن خرداذبة ينعتهم باللصوصية فيقول عنهم « الميد لصوص » (١٠٠) . كذلك نسمع وصف ابن حوقل (١٠١) لهم بأنهم « كفار بلد الســند وأنهــم قبائل مفترسة يعيشون على شطوط مهران من حد الملتان الى البحر ولهم في البرية بين مهران وقامهل مراع ومواطن ينتجعونها لمصيفهم ومشاتيهم وهم عدد كبير » .

ولو عدنا لحديث ابن خياط عنهم (الوارد في كتابه ضمن ما تضمنه من احداث وقعت في عهد المنصور) نقرأ ضمن احداث سنة ١٤١هـ قوله « ان ابا جعفر ولي محمدا بن ابي عيينة البحر فنزل مدينة قيس جزيرة في البحر (جزيرة كيش) فأتته مراكب الميذ فلم يخرج اليهم وخرج ابنه فقتل في جماعة من المسلمين وخلى ابن أبي عيينة المدينة فخربها فهي خراب الى اليوم » (١٠٢) .

وعند ذكره لاحداث سنة ١٤٨ هـ نسمعه يقول بأن الميذ دخلوا البحــر ووصلوا دجلة البصرة (شط العرب) (١٠٣) كذلك يذكر أن الهجوم تكرر في السنة التالية فيقول ابن خياط ما نصه : « لقي العدو (الميذ) أبا جيفر (١٠٤) بخارك (١٠٥) (جزيرة في وسط الخليج) فأصيب هو واهل مركبه » .

---

(٩٩) التنبيه والاشراف ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٥٥ .
وقال عنهم ايضا (في مروج الذهب ، جا ، ص ٣٧٨) : « وفيها (المنصورة) حروب كثيرة من جنس يقال لهم الميد وهم نوع من السند » .

(١٠٠) المسالك والممالك ، ص ٦٢ .

(١٠١) صورة الارض ، طبعة بيروت (بدون تاريخ) ، ص ٢٨٠ .

(١٠٢) تاريخ خليفة بن خياط ، ص ٤١٩ .

(١٠٣) نفس المصادر السابق ، ص ٤٢٤ .

(١٠٤) أورد الدكتور شاكر مصطفى في كتابه (دولة بني العباس ، جا ، ص ٣٤٥) اســم ابا جعفر قاصدا الخليفة، ولكن النص ورد فيه اسم (أبا جيفر،) ولا أدري ايهما اصح . ذلك لان الدكتور شاكر علق على هذا الخبر مبديا اهميته لانه يتعرض للخليفة ذاته ويذكر انه لم يرد في مصدر تاريخي آخر .

(١٠٥) تحدث الاصطخري (مسالك الممالك ، ليدن ١٩٢٧ ، ص ٤٢) عن خارك بقوله : « مكان بحذاء جنابة يعرف بخارك وبه معدن اللؤلؤ ويخرج منه الشيء اليسير . الا ان النادر اذا وقع من هذا المعدن فاق في القيمة غيره » . وقال عنها المسعودي (مروج الذهب ، جا ، ص ١٢٦) انها « بلاد جنابة لان خارك مضافة الى جنابة وبينها وبين البر فراسخ وفيها مغاص اللؤلؤ » وذكر البكري انها على اربعة فراسخ من جنابا (عبدالله الغنيم : جزيرة العرب من كتاب الممالك والمسالك للبكري ، ص ٤٠) .

ويستشف الدكتور شاكر مصطفى (١٠٦) من هذا الخبر احتمال تعرض الخليفة نفسه لخطر الميذ أثناء قيامه نفسه برحلة بحرية تفقدية أجراها في الخليج ، وهو في نفس الوقت يضيف بأنه لم يرد لمثل هذه الرحلة ولا لنتائجها خبر صراحة أو تلميحا في المصادر التاريخية ، « فان صح فهم النص على انه يتعلق بأبي جعفر فان للامر معناه البعيد » .

ويواصل ابن خياط حديثه عن استمرار هجوم الميذ على البصرة فيقول انهم دخلوا في سنة ١٥١ هـ دجلة البصرة فتلقاهم أبو عبيدة السعدي (١٠٧) . وذكر أنهم في سنة ١٥٣ هـ توغلوا اكثر فأكثر في شط العرب فيقول ما نصه :

« دخل الميذ نهر الامير بدجلة البصرة فقتلوا وسبوا » (١٠٨) . ويروي ابن خياط شهادة شاهد عيان شهد قتالهم وتخريبهم فيقول : « حدثني نضلة أنه شهدهم يوم نهر الامير (١٠٩) وقاتلهم وجماعة معه حتى صاروا الى بوارجهم واستنقذوا ما في أيديهم » (١١٠) .

ويبدو من انقطاع اخبار هؤلاء المتجرمة منذ سنة ١٥٣هـ مدى اهتمام الخليفة المنصور بالقضاء على خطرهم وعلى خطر التجرم والقرصنة في الخليج وبذل الدولة عناية خاصة لاقامة قوة بحرية ترافق الاساطيل التجارية وتقطع دابر القرصنة في الخليج واخراج جماعات الميذ منه الى عرض المحيط الهندي ومهاجمتهم في عقر دارهم . ويؤكد ذلك ما ذكره ابن الاثير (١١١) عند سرده لحوادث سنة ١٥٣هـ من أن المنصور ، بعد عودته من مكة الى البصرة ، جهز جيشا في البحر الى الكيرك (القراصنة) الذين اغاروا على جدة . وكذلك حين أورد أن المنصور بنى سورا وخندقا للبصرة لحمايتها من غارات قراصنة

---

(١٠٦) شاكر مصطفى : دولة بني العباس ، جـ ١ ، ص ٣٤٥ .

(١٠٧) تاريخ ابن خياط ، ص ٤٢٥ .

(١٠٨) نفس المصدر السابق ، ص ٤٢٦ .

(١٠٩) وردت كلمة نهر الايسر خطا مطبعيا في كتاب الدكتور شاكر (دولة بني العباس، جـ١، ص٣٤٦).

(١١٠) تاريخ ابن خياط ، ص ٤٢٦ .

(١١١) الكامل في التاريخ ، المجلد الخامس ، بيروت ١٩٦٥ ، ص ٦٠٩ .

البحر وذلك في سنة ١٥٥هـ (١١٢) . ولقد ذكر البلاذري أن الخليفة المهـدي أرسل حملة بحرية الى السند لتاديب قراصنة البحر بها بقيادة عبدالملك بن شهاب المسمعي فقتل منهم خلقا كثيرا (١١٣) . واشار ابن خياط الى أن الرشيد ارسل في النصف من شهر ربيع الاول سنة ١٧٠ هـ (غداة تسلمـه الحكم) محمدا بن سليمان السعدي ، الذي أقره واليا على البصرة ، في ثلاثة عشر مركبا في بحر البصرة لمطاردة الميذ « فوصل بقواته الى عمان ولم يلق كيدا » (١١٤) . كذلك تحدث البلاذري قائلا أن « عمران بن موسى — والي الثغر من قبل الخليفة المعتصم — غزا الميد وقتل منهم ثلاثة الاف وسكر سكرا يعرف بسكر الميد ، ثم غزاهم مرة ثانية ومعه وجوه الزط (١١٥) فحفر من البحر نهرا أجراه في بطيحتهم حتى ملح ماؤهم وشن الغارات عليهم » (١١٦) . كذلك ذكر أن محمدا بن الفضل بن ماهان غزاهم في عهد المعتصم « فوصل الى ميد الهند في سبعين بارجة فقتل منهم خلقا كثيرا وافتتح (فالى) (١١٧) . ولقد تحدث ابن خياط عن غزوات قام بها بعض قواد الدولة الاسلامية في بحر البصرة (شط العرب) في عهد الخليفة الواثق لتعقب بقايا الميذ . فقال (١١٨) ان ابراهيم بن هاشم غزا بحر البصرة بتكليف من احمد بن رياح (١١٩) سنة ٢٢٨هـ . واضاف بأن أحمدا بن رياح كلف ابراهيم بن هاشم بنفس الامر في عامي ٢٢٩ ، ٢٣٠هـ ، فبلغ في عام ٢٣٠هـ « أداني بلاد سرست فحرق بعض قراها واصاب سبيا » (١٢٠) .

• خطر ثورتي الزنج والقرامطة على تجارة الخليج

وما كاد الخليج يخلو من هجمات متجرمة البحر ، وما كادت التجـارة العالمية في الخليج تعود الى نشاطها الاول وتعود ثغوره الى ازدهارها حتى تصاب هذه التجارة بتهديد خطر أشد وأنكى جاء نتيجة للتطورات التي حدثت

---

(١١٢) ابن الاثير : نفس المصدر السابق ، المجلد السادس ، ص ٥ .

(١١٣) فتوح البلدان ، ص ٥٤٥ .

(١١٤) تاريخ ابن خياط ، ص ٤٤٧ .

(١١٥) هم من سلالة فقراء الهنود الذين استجلبهم الحجاج الى العراق لفلاحة الارض .

(١١٦) فتوح البلدان ، القسم الثالث ، ص ٥٤٤ .

(١١٧) نفس المصدر السابق ، ص ٥٤٥ .

(١١٨) تاريخ ابن خياط ، ص ٤٧٩ .

(١١٩) كان احمد بن رياح قاضي قضاة البصرة ، وتولى القضاء بها منذ سنة ٢٢٣هـ .

(١٢٠) تاريخ ابن خياط ، ص ٤٧٩ .

في بلاد العراق في منتصف القرن الثالث الهجري . وتمثلت هذه التطورات في قيام ثورتي الزنج والقرامطة اللتين نشبتا في ذلك الوقت في جنوب العراق ومنطقة البحرين .

وكانت ثورة الزنج من أهم الاحداث التي اتعبت الخلافة العباسية ، ذلك لاستمرارها زهاء خمس عشرة عاما انهكت الدولة فيها وادت أحداثها الى تدهور الملاحة في الخليج وتوقف نشاط تجارة الهند والملاحة العالمية بسبب الفوضى التي اثارتها والخراب الذي عمت به جنوب العراق .

وقد سميت هذه الثورة بهذا الاسم لان صاحبها — الذي ادعى أنه من آل بيت النبي — جمع اليه الزنج (الزنوج المجلوبين من السواحل الشرقية الافريقية لفلاحة الضياع واستصلاح الاراضي بمنطقة البصرة (١٢١)) الذين كانوا يكسحون السباخ في البصرة وقادهم للثورة ضد أوضاعهم الاجتماعية السيئة (١٢٢) . وبدأت هذه الثورة في عهد الخليفة « المهتدي » العباسي في سنة ٢٥٥هـ وانتهت في عهد الخليفة « المعتمد » . واستمال صاحب الزنج بفصاحته وبلاغته قلوب زنوج البصرة ونواحيها من عمال موانىء الخليج العربي وغيرهم من عامة الشعب ودعاهم للخلاص من الرق والعبودية فاجتمع اليه منهم عدد كبير وعظم شأنه وتقويت شوكته وجمع الثروة الطائلة بعد فقر (١٢٣). وكانت لصاحب الزنج حروب وغزوات وغارات انتصر فيها وازداد مركزه قوة بعد انتصاره وانبثت الزنوج عساكره يعيثون فسادا فيجنوبي العراق والبحرين. واتسعت الثورة حتى غطت منطقة المستنقعات كلها ما بين البصرة وواسط (١٢٤) وقاست مدينة البصرة والابلة كثيرا من الزنج بسبب توالي هجماتهم عليهما واحراقهما (١٢٥) . ولقد تحدث ابن الاثير كثيرا وامتلأ مجلده السابع من كتابه الكامل بأحداث معارك الزنج من تقتيل الاهلين وبخاصة أهل البصرة وأصحاب السفن التجارية الواردة اليها . ويمتلىء هذا المجلد ايضا بأخبار تصدي الموفق لقوات صاحب الزنج ويصور مدى الخراب والدمار الذي اصاب البلاد من جراء هذه المعارك التي لم تنته الا بقتل صاحب الزنج سنة ٢٧٠ هـ بعد أن استمرت ثورته وتخريبه قرابة ١٥ عاما (١٢٦) . ويقدر صاحب

---

(١٢١) محمود اسماعيل : الحركات السرية في الاسلام ، القاهرة ١٩٧٣ ، ص ١٦٨ .

(١٢٢) المقريزي : السلوك لمعرفة دول الملوك ، الجزء الاول — القسم الاول ، القاهرة ١٩٤٣ ، ص ١٧ .

(١٢٣) ابن الاثير : الكامل ، المجلد السابع ، ص ٦٩ .

(١٢٤) Zaky Hassan : Les Tulunides, Paris 1933, p. 42.

(١٢٥) ويلسون : الخليج العربي ، ص ١٣٢ .

(١٢٦) لمعرفة تفاصيل احداث ثورة الزنج انظر المجلد السابع من كتاب الكامل لابن الاثير ، طبعة بيروت ١٩٦٥ .

كتاب « الفخرى في الاداب السلطانية » (١٢٧) قتلى حرب الزنج بمليوني انسان ونصف وقال ما نصه « قيل أن عدد القتلى في تلك الوقائع كان ألفي ألف وخمس مائة ألف انسان » .

وأدت احداث الزنوج الى الفوضى السياسية والاقتصادية في بلاد العراق ، الامر الذي عطل دولاب العمل فيها وادى بالتالي الى توقف تجارة الشرق تماما بسبب ما كانت تتعرض له سفن التجار من تجرم الزنج في البحر . وذكر ابن الاثير (١٢٨) أن الزنج استولوا مرة في ميناء البصرة على ١٩٠٠ سفينة وكان بها قوم من الحجاج والتجار ، كذلك استولوا على مائتي سفينة اخرى كانت تحمل دقيقا ونهبوا ما عليها .

ولما اشتد خطر ثورة الزنج هب « الموفق طلحة » اخ الخليفة « المعتمد » لحرب صاحب الزنج والقضاء على ثورته بعساكر كثيفة . والتقى جيش الخلافة مع جيش صاحب الزنج في مواقع عديدة دارت رحاها بين البصرة وواسط ، وكان النصر في بادىء الامر من نصيب صاحب الزنج ولكنها انتهت اخيرا ضده سنة ٢٧٠هـ ولقي حتفه وهو يحارب . فأبيدت قواته وأسر من تبقى منها ودمرت « المختارة » التي كان قد ابتناها عاصمة له (١٢٩) .

وما كادت بلاد جنوبي العراق وموانىء الخليج تتنفس الصعداء بانتهاء خطر ثورة الزنج حتى اصيبت بنكبة اخرى جاءتها من ثورة أنكى واشد وكانت لها آثار سيئة بعيدة المدى على الحياة السياسية والاقتصادية في الخلافة العباسية ، جاءتها من ثورة القرامطة التي اندلعت شرارتها في عام ٢٨٨ هـ (١٣٠) .

ولقد استقطبت الدعوة القرمطية (١٣١) سائر العناصر والعصبيات المقهورة في سواد العراق من جراء تسلط القواد الاتراك . ومن هذه العناصر التي تقبلت الدعوة وانخرطت في الثورة أهل سواد العراق المقيمين بمنطقة البطيحة وعنصر الزط وفلول منهزمي ثورة الزنج . ولقد حاول صاحب ثورة

---

(١٢٧) ابن طباطبا : الفخري في الاداب السلطانية ، القاهرة ١٩٢٧ ، ص ١٨٧ .

(١٢٨) الكامل ، جـ٧ ، ص ٦٩ .

(١٢٩) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، القاهرة ١٣٥٢ هـ ، جـ٣ ، ص ٢٢ .

(١٣٠) Sauvaget : Instructions Nautiques Arabes, p. 19.

(١٣١) القرامطة شيعة عملوا على نشر المذهب الاسماعيلي وعرفوا بهذا الاسم نسبة الى كبير دعاتهم « حمدان بن الاشعث » الملقب بقرمط لقصر قامته ورجليه (محمد جمال الدين سرور : نفوذ الفاطميين في جزيرة العرب ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٣١) .

ــ ولمعرفة تفاصيل حياة حمدان قرمط أنظر ، ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ١٤٧ــ١٤٩ .

القرامطة ، في بداية أمره ، أن يجعل صاحب الزنج ينضاف اليه ببقايا قواته ضد قوات الخلافة ، لكن صاحب ثورة الزنج لم يرض بشروط صاحبه ولم يتفقا (١٣٢) . ولذلك سارت ثورة القرامطة مستقلة عن ثورة الزنج ، ولقد انتهت ثورة الزنج مبكرة بينما استمرت ثورة القرامطة مشتعلة حتى نهاية القرن الرابع الهجري (١٣٣) ولذلك لم يجد بقايا جماعة الزنج مناصا من الانخراط تحت قيادة القرامطة .

وبدات ثورة القرامطة من بلدة واسط ، وكان خروجهم في عهد الخليفة المعتضد بن الموفق طلحة واستولوا سنة ٣١١ هـ على البصرة بعد أن خربوها وعاثوا فيها فسادا . ولقد ذكر ابن الاثير (١٣٤) ان القرامطة قتلوا من اهل البصرة خلقا كثيرا وان ابا طاهر (سليمان بن سعيد) اقام سبعة عشر يوما يحمل منها ما يقدر عليه من المال والامتعة والنساء والصبيان . ويمتلىء المجلد الثامن من كتاب ابن الاثير بأخبار حروب القرامطة وما نتج عن هذه الحروب من تخريب وارهاب .

ونجح القرامطة في اقتطاع بلاد البحرين عن جسم الدولة العباسية حيث كان أهم قوادهم (ابو سعيد بن بهرام الجنابي) يعمل على نشر دعوتهم في هذا الاقليم منذ سنة ٢٨٣هـ . وقد تمكن ابو سعيد الجنابي من الاستيلاء على مدينة هجر عاصمة بلاد البحرين بعد حصار دام سنتين واتخذ مدينة الاحساء عاصمة لدولة القرامطة الجديدة التي اسسها في هذه البلاد سنة ٢٨٦هـ (١٣٥). وزاد خطر القرامطة على العالم الاسلامي حين هاجموا مدينة مكة ونهبوا الحجاج وقتلوهم في المسجد الحرام ثم اخذوا الحجر الاسود وعادوا به الى الاحساء (١٣٦) . وفي سنة ٣٢٣هـ فرضوا اتاوة على الحجاج يؤدونها اليهم مقابل حمايتهم والمحافظة على أرواحهم (١٣٧) .

---

(١٣٢) سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ١٥٠٥ ، جـ١ ، ورقة ٢٢٢ أ .
(١٣٣) ابن الاثير : الكامل ، جـ٧ ، ص ١٤٩ .
(١٣٤) الكامل ، جـ ٨ ، ص ١٤٣ ، ١٤٤ .
(١٣٥) سرور : النفوذ الفاطمي ، ص ٣١ ، ٣٢ .
(١٣٦) يحيى بن الحسين : انباء الزمن في اخبار اليمن ، القسم الاول ، القاهرة ١٩٣٦ ، ص ٣٠ .
(١٣٧) سرور : ص ٣٦ .

وبذلك اصبحت الخلافة العباسية عاجزة عن حماية رعاياها من المسلمين وتأمين طريقهم الى بلاد الحجاز فضلا عن عجزها عن حماية بلاد العراق نفسها والخليج ودرء الخطر عن تجارتها وحماية اقتصادها من خطر القرامطة الذين اشاعوا الرعب والذعر بين الناس .

هذا ولقد ساعد على نجاح هذه الثورات وزيادة الاضطراب السياسي والخراب الاقتصادي الذي اصاب الدولة آنذاك اضطراب الحكم في الدولة بسبب سيطرة القواد الاتراك على السلطـة ، ومـا وقـع بين هـؤلاء القواد مـن صراع وما سببه هذا الصراع من فتنة بغية الاستئثار بالسلطان والحكم . ولقد استمر هذا الصراع بين قواد الاتراك ولم تنته هذه الفترة المضطـربة الا باستئثار البويهيين بالسلطة في بغداد سنة ٣٣٤ هـ . وكانت هذه الاحداث كفيلة باثارة الاضطرابات في الدولة وشل نشاطها التجاري وتوقف تجارة الخليج .

• سوء معاملة السلطات الصينية للتجار المسلمين

هذا وقد ساءت في ذات الوقت معاملة السلطات الصينية للتجار العرب ، الامر الذي أدى الى توقف هؤلاء التجار عن ارتياد موانىء الصين ، مثلما كانوا يفعلون في السابق، وقصر نشاطهم التجاري على الهند والبحر الاحمر وشواطىء أفريقيا الشرقية بعد أن تحولوا عن موانىء الخليج . وقد ادى ذلك الى عودة النشاط التجاري الى ميناء عدن الذي كان في حوزة الاسرة الزيادية التي كانت تحكم اليمن وقتئذ .

وكان اتصال العالم الاسلامي بالصين يمر عبر طريقين أولهما بحـري جنوبي يمر بالمحيط الهندي ثم مضيق سنغافورة ، وهو رغم بعده كان يعتبر طريق الاتصال المباشر بالصين ، والثاني بري شمالي عبر بلاد الترك ثم ممر زنجاريا (١٣٨) . ولقد اضحى الطريق البحري ، في العصر العباسي ، مألوفـا للناس ونشط المسلمون نشاطا كبيرا في الحركة التجارية البحرية في المحيـط الهندي ثم بحر الصين .

وكان حكام الصين ، في السابق ، يعاملون التجار العرب القادمة سفنهم من موانىء الخليج معاملة طيبة . ولهذا تردد هؤلاء التجار العرب على موانىء

---

(١٣٨) شاكر مصطفى : دولة بني العباس ، جا ، ص ٢٣٦ .

الصين وخاصة على ميناء خانفو (كانتون) الذي كان مجمع التجار (١٣٩) ، وكانت تصله سفن التجار الواردة من موانىء الخليج : البصرة وسيراف وموانىء عمان والهند محملة بالسلع والامتعة المتنوعة .

ويرجع المؤرخون تغير معاملة السلطات الصينية لتجار الخليج الى الانقلاب الذي قام به في مدينة كانتون ثائر ضد البيت الحاكم يدعى هوانج تشو واطلق عليه ابن الاثير اسم « بانشوا » (١٤٠) ، واستيــلاء هذا الثائــر على المدينة واحراقها سنة ٢٦٤هـ متحديا بذلك حكم اسرة تانج التي حكمت البلاد قرابة ثلاثة قرون (٦١٨ — ٩٠٧م) .

وكان الاستقرار قد تحقق في الصين على يد هذه الاسرة ، وفتحت هذه الاسرة ميناء كانتون امام السفن الاسلامية بعد ان اغلقته في وجوههم ووجوه جميع التجار الاجانب اكثر من ثلث قرن ، بسبب ثورة وقعت بها في الفترة ما بين (١٣٧ — ١٤٠هـ/٧٥٤ — ٧٥٧م) على يد ثائر يعرف باسم آن لوشان . وكانت السياسة الصينية قد مالت بعد اخماد ثــورة آن لوشان الى الانكماش على الذات . ويبدو أن فتح ميناء كانتون للسفن الاسلامية قد تم نتيجة تردد وفود وسفارات ما بين اباطرة تانج وبني العباس . وما كاد ميناء كانتون يفتح من جديد لتجار الخليج المسلمين حتى تكاثرت اعدادهم هناك تكاثرا واضحا سريعا . ولقد أفرد امبراطور الصين للمسلمين مكانا خاصا من المدينة وامر فعين لهــا قاضيا مسلما واماما للصلاة ، كما سمح لها ببناء المساجد ، وهــي امتيازات تكشف الاهمية التجارية والسياسية التي حققتها الجماعات التجارية الاسلامية هناك في تلك الفترة (١٤١) .

ومثلت ثورة هوانج تشو خطرا كبيرا على تجار الخليج المسلمين وعلى من تواجد منهم في مدينة كانتون ابان الثورة . فبسبب كره هذا الثائر للاجانب وميله الى سفك الدماء قتل في هذه المدينة ، غداة قيامه بالثورة ، من المسلمين واليهود والمسيحيين والمجوس سوى من قتل من اهل البلدة الصينيين مائــة وعشرين الف رجل (١٤٢) كانوا قد نزحوا الى المدينة وصاروا تجارا فيها (١٤٣). واكد المسعودي صحة هذا الرقم بقوله : « وانما احصى ما ذكرناه من هــذا

---

(١٣٩) الخاصكي : اخبار الصين والهند ، مخطوطة بالمكتبة الاهلية بباريس رقم ٢٢٨١ ، ورقة ٢٥ أ .

(١٤٠) الكامل ، المجلد السابع ، ص ٣١٩ .

(١٤١) شاكر مصطفى : دولة بني العباس ، ج٢ ، ص ٢٧٥ ، ٢٧٦ .

(١٤٢) الخاصكي : اخبار الصين والهند ، مخطوطة ، ورقة ٢٥ أ .

(١٤٣) أورد المسعودي أن عدد من قتل في هذه الثورة عموما وصل الى مائتــي الف (مروج الذهب ، ج١ ، ص ١٥٦) .

العدد لان ملوك الصين تحصى من في مملكتها من رعيتها وكذا من جاورها من الامم ليصير ذمة لها في دواوين لها بكتاب قد وكلوا باحصاء ذلك لما يراعون من حياطة من شمله ملكهم » (١٤٤) . ولم يقتصر اذى هذا الثائر على سكان مدينة كانتون بل امتد وشمل من وصل الى بلاد الصين من التجار المسلمين (١٤٥) .

وكان خراب مدن الصين على يد هذا الرجل الذي استمر في اثارة الرعب وفي سفك الدماء مدة طويلة الى ان تغلب عليه في آخر الامر صاحب البلاد الاصلي . ووقعت بسبب ذلك حروب عظيمة في الصين ، الامر الذي ادى الى حدوث فوضى كبيرة في البلاد ، والى انتشار المجاعات فيها واستقلال أمراء الاقاليم بامار اتهم (١٤٦) .

وعن تعرض التجارة وتجار الخليج المسلمين لاخطار احداث الصين يقول ابو يزيد السيرافي : « وامتدت يد حكام الصين الى ظلم من قصدهم من التجار من نواخذة العرب وأرباب المراكب فالزموا التجار ما لا يجب عليهم وغلبوهم على اموالهم واستجازوا ما لم يجز الرسم به قديما في شيء من افعالهم فنزع الله جل ذكره البركات عنهم جميعا ومنع البحر جانبه ووقع الفناء بالمقدار الجاري من المدبر تبارك الله اسمه في الربابنة والادلاء بسيراف وعمان » (١٤٧) .

ولقد صحب هذه الاضطرابات في بلاد الصين اضطراب وانقطاع التبادل التجاري المباشر بين موانىء الخليج وميناء كانتون . واقتصر وصول سفن تجار الخليج عند ميناء (كله) على الساحل الغربي لشبه جزيرة ملقا (الملايو) ، ثم تنقل المتاجر بطريق غير مباشر الى بلاد الصين (١٤٨) .

• عودة نشاط البحر الأحمر

ومع بداية القرن الرابع الهجري تدهورت التجارة في مياه الخليج واقتصر نشاط التجار العرب على البحر الاحمر وعاد النشاط الى ميناء عدن من جديد .

---

(١٤٤) المسعودي : مروج الذهب ، ج ١ ، ص ١٥٦ .

(١٤٥) سليمان العسكري : التجارة والملاحة في الخليج العربي ، القاهرة ١٩٧٢ ، ص ١٤٤ .

(١٤٦) سقطت هذه الاسرة فعلا سنة ٢٩٥هـ/٩٠٧م (حوراني : العرب والملاحة ، ص ٢٢٦) .

(١٤٧) ابو يزيد السيرافي : اخبار الصين والهند ، ج ٢ ، ص ٦٧ .

(١٤٨) سليمان العسكري : التجارة والملاحة ، ص ١٤٥ .

وكان يحكم اليمن آنئذ الاسرة الزيادية (١٤٩) التي استغلت اضطراب الاحوال في منطقة الخليج لصالحها وعملت على تشجيع التجار الهنود والصينيين على ارتياد ميناء عدن لتحقيق المكاسب الهائلة من وراء تجارة الشرق الهامة التي عادت لتمر بعدن ثغر بلادهم الهام . وقد بلغت عدن ، بسبب هـذا التحول التجاري ، قمة ازدهارها في عهد أبي الجيش اسحق (٢٩١ — ٣٧١هـ) لما كانت تحصله من مكوس على هذه التجارة. ويشهد على ذلك ما أورده عمارة اليمني عن ثراء اسحق هذا بقوله عنه : « رايت مبلغ ارتفاع اعمال أبي الجيش اسحق من ابراهيم بن زياد سنة ٣٦٦هـ من الدنانير الف الف عثرية خارجا عن ضرائبه على مراكب الهند من الاعداد المختلفة والمسك والكافور والصينـــي والصندل وخارجا عن ضرائب العنبر على السواحل بباب المندب وعدن وأبين والشحر وغير ذلك ، خارجا عن ضرائبه على معادن اللؤلؤ وعن ضرائبه على صاحب مدينة دهلك ، وكانت ملوك الحبشة من وراء البحر تهاديه وتستدعي مواصلته » (١٥٠) .

---

(١٤٩) حكمت هذه الاسرة بزبيد باليمن من سنة ٢٠٤هـ حتى سنة ٤١٢هـ (الواسعي : البدر المزيل للحزن في فضل اليمن ، القاهرة ١٣٤٥هـ ، ص ٢٣) .

(١٥٠) عمارة اليمني : تاريخ اليمن ، نشر هنري كاسل كي ، لندن ١٨٩٢ ، ص ٦ .

مصادر البحث

— ابن الاثير . الكامل في التاريخ ، ج ٥ — ٨ ، بيروت ١٩٦٥ .

— ابن تغري بردى . **النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة** . ج٣ ، القاهرة ١٣٥٢هـ .

— ابن حوقل . **صورة الارض** . طبعة بيروت (بدون تاريخ) .

— ابن خرداذبة . **المسالك والممالك** . ليدن ١٨٨٩ .

— ابن طباطبا . **الفخري في الاداب السلطانية** . القاهرة ١٩٢٧ .

— أبو يزيد السيرافي . **أخبار الصين والهند** . نشر رينو ، ج١ ، باريس ١٨٤٨ .

— آدم ميتز . **تاريخ الحضارة الاسلامية** . ترجمة محمد عبدالهادي أبو ريدة ، ج٢ ، القاهرة ١٩٤١ .

— آرنولدت ويلسون . **الخليج العربي** . ترجمة عبدالقادر يوسف ، الكويت (بدون تاريخ) .

— الاصطخري . **مسالك الممالك** . لندن ١٩٢٧ .

— البلاذري . **فتوح البلدان** . القسم الثالث ، القاهرة ١٩٥٧ .

— الجاحظ . **التبصر بالتجارة**. تحقيق حسن حسني التونسي،دمشق ١٩٣٢ .

— حوراني . **العرب والقرصنة في المحيط الهندي في العصور القديمة وأوائل القرون الوسطى** . ترجمة السيد يعقوب بكر ، القاهرة ١٩٥٨ .

— الخاصكي . **اخبار الصين والهند مخطوطة** ، بالمكتبة الاهلية بباريس ، رقم ٢٢٨١ .

— خليفة بن خياط . **تاريخ خليفة بن خياط** . تحقيق اكرم ضياء العمري ، بيروت ١٩٧٧ .

— الزمخشري . **تاريخ السندباد** . مخطوطة ، بالمكتبة الاهلية بباريس ، رقم ١٢٢٨ .

— سبط ابن الجوزى . **مرآة الزمان** . مخطوطة ، بالمكتبة الاهلية بباريس ، ج١ ، رقم ١٥٠٥ .

— سعيد الافغاني . **أسواق العرب في الجاهلية والاسلام** . دمشق ١٩٦٠ .

— سليمان العسكري .**التجارة والملاحة في الخليج العربي**. القاهرة ١٩٧٢ .

— شاكر مصطفى . **دولة بني العباس** . ج١ ، ٢ ، الكويت ٧٣—١٩٧٤ .

— صالح احمد العلي . **التنظيمات الاجتماعية والاقتصادية في البصرة في القرن الاول الهجري** . بيروت ١٩٦٩ .

— عبدالله يوسف الغنيم . **جزيرة العرب من كتاب المسالك والممالك للبكري** . الكويت ١٨٧٧ .
— عطية القوصي . **تجارة مصر في البحر منذ فجر الاسلام حتى سقوط الخلافة العباسية** . القاهرة ١٩٧٦ .
— عطية القوصي . « سيراف وكيش وعدن من القرن الثالث الهجري حتى السادس » مقال **بمجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية** ، المجلد ٢٣ لسنة ١٩٧٦ .
— عمارة اليمني . **تاريخ اليمن** . نشر هنري كاسل كي . لندن ١٨٩٢ .
— محمد جمال الدين سرور . **النفوذ الفاطمي في الجزيرة العربية** . القاهرة ١٩٦٤ .
— محمود اسماعيل . **الحركات السرية في الاسلام** . القاهرة ١٩٧٣ .
— المسعودي . **التنبيه والاشراف** . بيروت ١٩٦٥ .
— المسعودي . **مروج الذهب ومعادن الجوهر** . جا ، بيروت ١٩٦٥ .
— المقريزي . **السلوك لمعرفة دول الملوك** . الجزء الاول ، القسم الاول، القاهرة ١٩٤٣ .
— نعيم زكي . **طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب**. القاهرة ١٩٧٣ .
— الواسطي . **البدر المزيل للحزن في فضل اليمن** . القاهرة ١٣٤٥ هـ .
— ياقوت . **معجم البلدان** . جا ، القاهرة ١٩٠٦ .
— يحيى بن الحسين . **انباء الزمن في اخبار اليمن** ، القسم الاول ، القاهرة ١٩٣٦ .

— De Somogyi. **"Trade in Classical Arabic Literature" WM**, Vol. LV, No. 2, 1965.
— Lamb. "A visit to Siraf". **JRAS**, V. 37, Part I.
— Navdi, R. Industry and Commerce under the Abbasid, JPHS, V.I, Karachi 1953, Part II.
— Sauvarget. **Instructions Nautiques Arabes pour mers de L'Inde.** JA, 1984, P. 236.
— Weit. **L'Egypte Arabe de la Conqûete Arabe**, T. IV, Paris 1937.
— Wiet. **Les Marchands d'épices**. CHE, Le Caire 1955.
— Zaky Hassan. **Les Tulunides**, Paris 1938.

صدر من هذه النشرة

١ ــ **زراعة الواحة في وسط وشرق شبه الجزيرة العربية**
ترجمة الدكتور زين الدين عبدالمقصود

٢ ــ **أسس البحث الجمرفلوجي مع الاهتمام بالوسائل العلمية المناسبة للبيئة العربية**
بقلم : الدكتور طه محمد جاد
الدكتور عبدالله الغنيم

٣ ــ **توطين البدو في المملكة العربية السعودية (الهجر)**
ترجمة : الدكتور عبدالاله أبو عياش

٤ ــ **اثر التصحر كما تظهره الخرائط**
ترجمة : الدكتور علي علي البنا

٥ ــ **سكان ايران ، دراسة في التغير الديموجرافي**
ترجمة : الدكتور محمد عبدالرحمن الشرنوبي

٦ ــ **القبائل والسياسة في شرقي شبه الجزيرة العربية**
ترجمة : حسين علي اللبودي

٧ ــ **سكان دولة الامارات العربية المتحدة**
بقلم : الدكتورة أمل يوسف العذبي الصباح

٨ ــ **السياسات السكانية في أفريقيـــة**
ترجمة : أ.د.محمد عبدالغني سعودي

٩ — أثر التجارة والرحلة في تطور المعرفة الجغرافية عند العرب
أ.د.محمد رشيد الفيل

١٠— نحو تصنيف مورفولجي لمنخفضات الصحراء
بقلم : دكتور صلاح الدين بحيري

١١— مواد السطح في البحرين — مسح المصادر واهميته التطبيقية للتخطيط الاقليمي
ترجمة : أ.د.حسن طه نجم

١٢— الطاقـــة والمنـــاخ
ترجمة : د. زين‌الدين عبدالمقصود

١٣— التطبيق الهندسي للخرائط الجيومورفولوجية
بقلم : د. يحيى عيسى فرحان

١٤— بعض عواقب الهجرة على التنمية الاقتصادية الريفية في الجمهورية العربية اليمنية
ترجمة : د. عبدالاله ابو عياش

١٥— البعثة العلمية الى شبه جزيرة مسندم (شمال عمان)
ترجمة : أ.د. محمود طه ابو العلا

١٦— نظام النقل العام والخدمات الترويحية في الكويت

أستاذ عبد الوهاب الهارون

د. عبد الاله أبو عياش

١٧— مدن الشرق الاوسط

ترجمة : د. محمد عبد الرحمن الشرنوبي

تنفيذ : أملكو للخدمات
الكويت ، لبنان
ص.ب : ٢٤٢٦٧ الصفاة

طباعة شركة المطبعة العصرية ومكتباتها
الكـــويت